كانا فى وقت ما يشغلان منصبين من مناصب الحكومة

وكان كلاهما فارغ الرأس . ومن أجل ذلك وعلى غرة منهما وجدا نفسيهما « يشحنان » إلى جزيرة غير مأهولة كأنما ينقلهما إليها بساط سليمان

وكانا قد قضيا عمريهما فى ديوان حكومى نشآ فيه وتربيا وشابا ؛ وكأنما قد ولدا به أيضاً . وهما من أجل ذلك لا يعرفان أى شىء لا يتصل بأعمالهما . وكل الذى يعرفانه ينحصر فى الصيغ الديوانية المألوفة التى تنتهى بهذه الجملة : « وتفضلوا بقبول احترامى »

لكن هذا الديوان ألغى وأقالتهما الحكومة فهاجرا ، بعد إذ أطلق سراحيهما ، إلى شارع بوديشسكايا فى بطرسبورج . وكان لكل منهما فيه منزله وطاهيه ومعاشه

ولما استيقظا من النوم فى الجزيرة التى « شحنا » إليها ، وجدا نفسيهما نائمين تحت لحاف واحد . ولم يفهما بالطبع فى البداية ماذا أصابهما ؛ فأخذا يتكلمان كما لو كان الأمر بينهما يجرى على عادته

قال أحدهما : « ما أغرب الحلم الذى رأيته ليلة الأمس ياصاحب السعادة ! لقد رأيت فى الحلم أنى نقلت إلى جزيرة غير مأهولة »

لكنه ما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى وثب من مكانه ووثب الموظف الآخر أيضاً ، وقال فى دهشة شديدة : « ولكن أين نحن الآن ؟ وهل كان ما رأيناه حلماً ؟ »

ولبس كل منهما الآخر ليستوثق هل هو فى حلم أو يقظة . وكان أمامهما المحيط ، ووراءهما متسع قليل من الأرض خلفه المحيط أيضاً ، فبكيا لأول مرة بعد أن ألغى ديوانهما

ونظر كلاهما إلى الآخر فرآه لا يرتدى غير قميص النوم ، وقد علقت فى جيبه صفيحة عليها رقم . وقال أحدهما : « الآن موعد تناول القهوة ؛ ولكن من لنا بها الآن ؟ » ثم عاد إلى البكاء وقال : « ما الذى نفعله ياصاحب السعادة ؟ إننا لو كتبنا تقريراً فكيف نبعث به ؟ »

فأجابه الموظف الآخر : « سأخبرك بالذى يجب أن نفعله ياصاحب السعادة : أنا أذهب شرقاً وأنت تذهب غرباً ، ثم نعود إلى الاجتماع هنا ، وإذا اهتدى أحدنا إلى رأى تشاورنا فيه »

وهنا اختلفا فى تعرف الشرق والغرب وتذكرا قول رئيس الديوان :

« إذا أردت أن تعرف الشرق فاجعل الشمال أمامك ، فالذى على يمينك عند ذلك هو الشرق » ، ولكنهما لما أرادا أن يعرفا أين هو الشمال اتجها نحو كل الجهات دون أن يهتديا إليه . ولأنهما قضيا كل حياتيهما فى دار المحفوظات ؛ فقد ذهب مجهودهما هذا عبثاً

وقال أحدهما : « أرى يا صاحب السعادة أن يذهب أحدنا إلى اليسار والآخر إلى اليمين »

وكان هذا الموظف قد اشتغل فضلاً عن عمله فى دار المحفوظات بتدريس علم الخط وقتاً ما ، فهو لذلك أذكى قليلاً من صاحبه

وكان كما اقترح . أما الموظف الذى ذهب إلى اليمين فوجد أشجاراً تحمل كل أنواع الفاكهة ؛ وكان بوده لو يستطيع تناول تفاحة ، ولكن الثمر كان شديد العلو فلا يستطيع الحصول عليه إلا إذا تسلق الشجر . وقد حاول أن يتسلق إحداها ، ولكن ذهبت محاولته سدى . وكل الذى نجح فيه أنه مزق قميص نومه

وألقى نظرة على الماء فرآه ممتلئاً بالسمك ، فتمنى لو أن كل ما فيه من السمك معروض للبيع بشارع بود شسكايا . ولما مر هذا الخاطر بذهنه جرى لعابه . ومشى فى الغابة فرأى كل أنواع الطيور والأرانب والغزلان فقال :

« يارب ما أكثر رزقك وما أقل قدرتنا على الحصول عليه ! »

واشتدت عليه وطأة الجوع . وعاد إلى المكان الذى اتفق مع صاحبه على لقائه فيه فوجده فى انتظاره

قال : « ما ذا وجدت يا صاحب السعادة ؟ » فأجابه صاحبه : « لم أجد غير عدد قديم من جريدة الوقائع الرسمية » . فأخذ يحدثه عما وجده هو . وجلس الموظفان ، ثم حاول كل منهما أن ينام ولكن خلو معدتيهما من الطعام سبب لهما أرقاً شديداً . وكان من أسباب الأرق أيضاً تفكيرهما فى المعاش المرتب لكل منهما ، وفيمن يتقاضاه عنهما الآن فيتمتع به دونهما . وكان من أسباب الأرق فضلاً عن ذلك تفكيرهما فيما بالجزيرة من سمك وسمانى وأرانب وفاكهة وأن ليس فى مقدورهما الحصول على شىء منها

قال أحد الموظفين : لا أعرف كيف نعيش هنا ؟ إننا حتى لو استطعنا الحصول على طائر فكيف نذبحه وننظفه ونطبخه ؟ كيف يحدث كل ذلك ؟

فأجابه الآخر : « إننى فى الحق لا أفهم كيف يحدث كل ذلك »

ثم عادا الى الصمت وحاولا أن يناما ، ولكن قبل أن تغتمض عيونهما مر سرب من السمانى فتخيلاه وهو مقلى على الأطباق . وقال أحد الموظفين : « لقد هممت من شدة الجوع أن آكل حذائى » فأجابه الآخر : « إننى سأمتص جوربى »

ونظر كل منهما الى الآخر نظرة شر كأن نفسه تحدثه بأن يأكل صاحبه ؛ ثم صرخ كل منهما صرخة جنونية كأنها عواء الذئب . وقال الموظف الذى اشتغل مرة بالتدريس : « أظننا لن ننتظر حتى يحاول أحدنا أن يأكل الآخر » فأجابه : « وكيف نفعل ؟ إننا بلا ريب سنلاقى الموت ؛ فما رأيك يا صاحب السعادة ؟ »

قال : « يجب أن نقطع الوقت بالمحادثة ، وإلا فان واحداً منا سيأكل الآخر لا محالة » فأجابه الموظف الآخر : « ولكن ماذا نقول ؟ إبتدىء أنت ! »

قال الموظف الذى كان مدرساً : « قل لى لماذا تشرق الشمس أولاً ثم تغرب ؟ ولماذا لا يكون العكس ؟ » فأجابه الآخر : « هذا سؤال مضحك ياصاحب السعادة . إن الشمس تشرق لكى نستيقظ ونذهب كل منا إلى الديوان ، ثم تغرب لكى ننام »

قال : « ولكن لماذا لانفترض العكس فنذهب عند شروق الشمس إلى الفراش فننام ونحلم ، وعندما تغرب الشمس . . . » فقاطعه الآخر قائلاً : « إن

هذا القول لا يستقيم مع التفكير ، لأن شروق الشمس يحمل الانسان على الاستعداد للذهاب ، كما أن غروبها يحمل الانسان على طلب العشاء »

وقد أفسدت كلمة العشاء المحادثة لأنها هاجت جنون الموظفين الجائعين ، فقال أحدهما : « إن أحد الأطباء قال لى إن الانسان يستطيع أن يعيش مدة ما بما فى جسمه من سوائل . فقال الآخر : « لا أفهم ماذا تعنيه »

قال : « هذا يعنى أن فى الجسم أنواعاً مختلفة من السوائل ، وأن بعضها يتحول إلى بعض حتى تصير الى الخلاصة الغذائية » فقال الآخر : « وماذا يحدث بعد هذا ؟ »

قال : « يحتاج الانسان فى النهاية الى طعام جديد ليتحول الى الأنواع المختلفة من تلك السوائل » فقال : « إذن فالعبرة كلها بالطعام ! لعنة الله على الطعام ! »

وأدرك الموظفان أن هذا النوع من الحديث لا يؤدى الى الغرض الذى يقصدان إليه ، بل هو يزيد من شهوتيهما فقررا أن يتركا الحديث ؛ فلما طال بهما الصمت تذكر أحدهما الوقائع الرسمية فتناولها ليقرأ فيها لصاحبه . ولكن انتهت الفقرة الأولى — وهى خبر وليمة رسمية — إلى ذكر أنواع الطعام ، فأخذ الآخر منه الجريدة ليقرأ خبراً آخر . وأخذ يقرأ ، ولكن الخبر — وهو استكشاف جديد — قد انتهى باقامة حفلة تكريم ، وتناول أيضاً ذكر الطعام

ودفع بالجريدة إلى صاحبه فقرأ فيها فقرة لا تتعلق بدايتها بالطعام ، ولكنها انتهت إلى ذكره أيضاً . فأطرق كلا الرجلين وتثاءب تثاؤباً مؤلماً

ثم برقت عينا صاحب السعادة إذ خطر بباله خاطر سعيد . ووقف فجأة ليعلن استكشافه وصاح : « ماذا تقول ؟ لقد عرفت السبيل إلى النجاة ، فماذا تقول إذا أتينا بخادم ؟ »

فصاح الآخر : « وكيف نأتى بخادم يا صاحب السعادة ؟ وأى صنف من الخدم نجده هنا ؟ »

فقال : « خادم بسيط كسائر الخدم يستطيع أن يعد لنا الطعام وأن يصيد السمك ويطبخهما »

قال : « هذا حسن ولكن كيف نجده ؟ »

فقال : « لماذا ؟ إن الخدم موجودون فى كل مكان . إننا نقوم فنبحث حتى نجد واحداً منهم . ولا بد أن يكون هنا خادم على الأقل »

اطمأن الموظفان إلى هذه الفكرة . وقام كل منهما ليبحث عن خادم . وطالت مدة بحثهما ، ولكنهما لم تذهب سدى ، فقد وجدا فى النهاية رجلاً أسود اللحية على جسمه ثوب من جلد الماعز وهو نائم تحت شجرة ؛ فلكزه صاحب السعادة وصاح : « كيف تنام هنا ونحن موظفان نكاد نموت من الجوع . قم ! »

فنهض الخادم ونظر الى الموظفين وكان أول ما هم به أن يفر ، ولكنهما أمسكا بثلابيبه فاستسلم المسكين للقدر المقدر عليه ، وصدع بالأمر وتسلق شجرة تفاح فجمع للسيدين الجديدين خير ما فيها . وقطف تفاحة توشك على الفساد ، فجعلها لنفسه . ثم نزل عن الشجرة ، فجمع مقداراً من البطاطس وأوقد النار بضربة حجرين فى وسط هشيم وطبخ البطاطس ؛ وفى أثناء ذلك صاد أرنباً فأضافه الى الطعام . وصاد كذلك زوجاً من السمك ؛ فأدرك الموظفان مقدار ما لقياه من السعادة بقرب هذا الخادم . ونسيا أنهما كادا يموتان من الجوع منذ قليل . وقال كل منهما للآخر : « ما أسعد حياة الموظف ! »

وقال لهما الخادم : « هل أنتما مسروران ؟ »

فقالا : « نعم ونحن نقدر خدماتك »

قال : « فهل تسمحان لى الآن بأن أستريح ؟ فقالا : « نعم على شرط أن تأتى لنا بحبل أولاً » فذهب وجمع أليافاً طويلة ولم يزل يفتلها حتى صنع منها حبلاً

طويلاً متيناً فسلمه اليهما واستأذن فى السماح له بالراحة فقيداه بالحبل وأذنا له بأن ينام فى ظل الشجرة المجاورة

وزاد حذق الخادم فى تهيئة الطعام فزاد الموظفان بدانة وصحة . وقال أحدهما للآخر وهما يتناولان طعام الافطار : « ما رأيك يا صاحب السعادة ؟ هل تعتقد أن قصة برج بابل قصة رمزية أم قصة واقعية ؟ »

فقال : « إنها بلاشك قصة واقعية ؛ والدليل على ذلك كثرة ما فى العالم من اللغات . وإلا فكيف تنشأ اللغات لولا تبلبل الألسن ؟ »

قال الآخر : « وهل تعتقد أن قصة الطوفان صحيحة ؟ » فقال صاحب السعادة : « نعم بغير شك . ودليلها وجود أنواع كثيرة من الحيوان » وتناول عدد الوقائع الرسمية فأخذ يقرأه للمرة العاشرة من أوله إلى النهاية

لكن السأم دب الى نفسيهما ، فقد كانا يذكران ثيابهما الرسمية ومعاشهما وظاهيهما فى بطرسبورج فتذرف عيونهما الدمع

وقال أحدهما : لاأعرف كيف شارع بوديشسكايا الآن يا صاحب السعادة » فقال : لا تذكرنى به فقد كاد يقتلنى الحنين إلى الوطن »

قال الآخر : « إن الحياة هنا لذيذة لا عيب فيها ، ولكن الحمل يتوق الى ثدى أمه ، ونحن نتوق الى رؤية بلدنا والى ارتداء ثيابنا الرسمية فى يوم قبض المعاشات على الأقل

قال صاحب السعادة : « إن الملابس الرسمية حتى ولو كانت من الدرجة الرابعة تسر الانسان وتنسيه متاعبه

واستدعى الموظفان الخادم ليشير عليهما برأى لكى يعودا الى شارع بوديشسكايا ، وقد كان من حسن الحظ أن هذا الخادم الذى يعرف كل شىء قد عرف هذا الشارع أيضاً ؛ وكان أيضاً خادماً فى المنزل المجاور للديوان الذى كانا به

ولم يكن من المستطاع طبعاً أن يطلب هذان الموظفان الى الخادم شيئاً فيتردد ضناً منه بلذتهما وسرورهما ، ففكر فى الوسيلة المؤدية الى عودتهما ، وصنع لهما من أشجار الغابة سفينة لم تكن كسائر السفن ، ولكنها مجرد أخشاب مربوطة بعضها الى بعض ، وصنع لنفسه مجدافين ليتولى بمفرده تسيير السفينة

وأبدت الرحلة ؛ فكانا يلعنانه ويلقبانه بأقبح الألقاب كلما ظنا أن حياة اثنين من الموظفين ستتعرض للخطر فى سفينة هذا الخادم

وكان يقول : « لا تخافا ياصاحبى السعادة فانى وسائر الخدم معتادون تسيير هذا النوع من السفن كلما أردنا الفرار من خدمة السادة

وكان البليدان لا يعملان شيئاً فى السفينة ، فنهض الخادم مع انفراده بالتجديف بهيىء لهما الطعام مما يصيده من السمك ويشويه حتى بلغت السفينة النهر

وما كان أسعدهما عندما انتقلت السفينة من بحر البلطيق الى نهر النيفا . ودخلت السفينة قناة كترينا وهما لايزالان بها ، ولم يخطر ببالهما أن يقطعا بقية المسافة مشياً على الأقدام . وفى النهاية وصلا الى العاصمة ، فاستمر الخادم يجدف حتى وصل الى شارع بوديشسكايا

كانت سعادتهما سعادة بالغة عندما نزلا من السفينة فجلسا على أقرب مقهى من الشاطىء يشربان القهوة . وفى اليوم التالى لبسا الثوب الرسمى وذهبا لقبض المتجمد من المعاش . ولست أستطيع الاخبار عن مقدر هذا المعاش ولكنهما لم ينسيا الخادم ، فقد أهديا إليه زجاجة من الويسكى وخمسة قروش صحيحة

تمتع يا خادم !

عبد اللطيف النشار